الاعجاز القرآني في الألفاظ المشتقة من جذر لغوي واحد

م. د. أحمد حنون ميس
الجامعة المستنصرية – كلية التربية – قسم علوم القرآن الكريم

الخلاصة:

أراد الباحث تسليط الضوء على واحدة مما انماز به الأسلوب القرآني وهو الاعجاز من خلال الكلمة ذي الاشتقاق الواحد، اذ تمثل واحدة من الظواهر الاسلوبية البارزة في التعبير القرآني وهذا التنوع في الاشتقاق يعدُّ واحداً من أظهر الادلة على اعجاز المفردة القرآنية، فقد تتبعت مواضع ورودها بحسب سياقها الذي جرت عليه، كاشفا عن وجه الاعجاز في انتقائها من خلال النسق البنائي لها، راصدا أهم المعاني واللطائف التي ظفرت بها بعد معايشة هذه الدراسة.

وقد لاحَ للباحث أنَّ التعبير القرآني الكريم قد ساق في بعض مواضعه ألفاظا لم تكن مألوفة في القاموس العربي، والحكمة من هذا الاستعمال ليربط بين لغة المجتمع الذي يتحدث عنه وبيئته، وقد يعلو على ذلك ليتعدى الى العادات والتقاليد والقيم الاخلاقية.

والحمد لله رب العالمين

الكلمات المفتاحية : الاعجاز القرآني، الالفاظ المشتقة ، الجذر اللغوي

Quranic miracles in words derived from one linguistic root

Lecturer Dr. Ahmed Hanoun Miss

Al-Mustansiriya University - College of Education - Department of Holy Quran Sciences

Abstract

The researcher wanted to shed light on one of the characteristics of the Qur'anic style, which is the miracle through the word with one derivation, as it represents one of the prominent stylistic phenomena in Qur'an expression, and this diversity in derivation is one of the most visible evidence for the miracle of the Qur'anic vocabulary. That which took place on it, revealing the miracle of its selection through the structural pattern of it, observing the most important meanings and kindness that it gained after experiencing this study.

The researcher noticed that the noble Qur'an expression had been used in some places in terms that were not familiar in the Arabic dictionary.

Keywords: Quranic miracles, derivations, linguistic root

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول رب العالمين، محمدٍ المصطفى وعلى أهل بيته الطاهرين الهداة المهديين، عِدْل القرآن، وخزائن العلم ومنبع الإلهام.

أمَّا بعد:

فإنَّ النص القرآني كما قال وفوق ما يقول عنه الوليد بن المغيرة: (إنَّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه)[١]، إذ بذلَ الأولون والآخرون جهدهم لتفسيره وبيان صور اعجازه، فقد سحر بروعة أساليبه ودقة

استعمال مفرداته عقول الباحثين على مرّ العصور والدهور، فالبحث القرآني على الرغم من تعدده وكثرة اتجاهاته وجوانبه يبقى عاجزاً عن الإحاطة بمقاصد التعبير القرآني واستظهار لطائفه، بوصفه يتسمُّ بعلوّ المعنى، وقوة البيان، وروعة الاعجاز.

ويعود شغفي في دراسة الكلمة القرآنية وما تنطوي عليه من أسرار تعبيرية ومظاهر إعجازية إلى أيام دراسة الدكتوراه، حينما وفقني ربي للاشتغال في بيان أسرار المفردة القرآنية وما يؤول إليه النَّظْم المعجز، ومن هذا المنطلق فقد شددت رحالي وتوكلت على الله الذي يتوكل عليه المتوكلون، لأنتهل من ذلك النبع الصافي بقدر ما وهبني ربي من قبلياتٍ معرفية تعينني في تلمُّس مظاهر الإعجاز القرآني من خلال الكلمة الواحدة ذي الاشتقاق الواحد، مستشهداً وآخذاً بتوجيهات من أثقُ بعلمهم ممَّن اتخذوا نظْم الآي المبارك وسيلة على إدراك المعنى الذي ترمي إليه هذه الكلمة أو تلك.

وتكونت هذه الدراسة من مقدمة ومباحث ثلاثة وخاتمة بنتائج البحث، فأمَّا المبحث الأول منها: فقد كان بمنزلة اطلالة سريعة للتعريف بالإعجاز اللغوي، بوصفه الممهِد لدراستنا هذه، وأمَّا الثاني منه فجاء بعنوان الاعجاز في تنوع صيغة الفعل المشتق من جذر لغوي واحد، وأمَّا الثالث فهو: الاعجاز في تنوع صيغة الاسم المشتق من جذر لغوي واحد، وأمَّا الخاتمة فقد جاءت لترصد النتائج التي توصل اليها الباحث في المباحث الثلاثة.

هذا، ومن الله التوفيق، فهو سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

اطلالة على الاعجاز اللغوي في القرآن الكريم

أولاً: الاعجاز في اللغة والاصطلاح:

إنَّ (الإعجاز) من جهة اللغة له معان متعددة فصَّلتها أمَّات المعجمات العربية كلسان العرب وتاج العروس ونحوهما، والمعنى العام له يدور في دائرة السَّبق والفوت، وهو مصدرٌ مأخوذ من فعله الثلاثي (عَجَزَ) الذي معناه الضَّعْف وعدم القدرة[٢]، وفعله الرباعي (أَعْجَزَ) فنقول: أعجز يعجز إعجازًا[٣] واسم الفاعل منه (مُعْجِزْ) وأعجزتَ فلاناً أي جعلته عاجزاً لا يستطيع اللحاق بك[٤]، وسُميت (العجوز) بذلك لأنَّها تعجز عن القيام بكثير من الأمور[٥].

وأمَّا اصطلاحاً فإنَّ في تعريفات أرباب العلم أقوالٌ يتطلب ذكرها الاطناب، لعلَّ من أبرزها تعريف الشريف الجرجاني (ت:٨١٦هـ) الذي يقول: (الإعجازُ في الكلام هو: أَنْ يؤدّى المعنى بطريقٍ هو أبلغُ من جميع ما عداه من الطرق)[٦].

وفي الاعجاز اللغوي للألفاظ القرآنية يقول الراغب الاصفهاني (ت:٥٠٢هـ) مبيناً منزلتها وسموّها: (فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتّبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة)[٧].

إن مصطلح الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم يراد به دراسة بعض الأساليب التي جاء بها التعبير القرآني الكريم، ذلك الكتاب الذي أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة وعمالقة البيان، وهذه الأساليب الرفيعة هي ليست صنيعة شخصٍ ما، وإنما نابعة من صُلب العربية وقواعدها التي كان يعرفها العرب آنذاك حق المعرفة لكنهم عجزوا عن مجاراته فكان غيرهم أعجز.

وعليه فليست الغاية من دراسة الأسلوب القرآني تحدي هذا البناء المعجز البديع، لأننا مؤمنون بأنه لن يستطيع أحدٌ مجاراته مهما أوتي نصيباً من العلم، لقوله عزَّ من قائل: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[٨]، إلا أنَّ ما ترمي اليه الدراسة هو تلمُّس مظاهر ذلك الاعجاز من خلال دراسة النصوص القرآنية الكريمة، في دراسةً تستند الى اللغة ولا تنأى عنها، ليتأكد أنَّ هذا النَّظْم هو من عند الله تعالى، ليؤمن به من ليس بمؤمن، ويزداد إيماناً وثباتاً من كان مؤمناً.

ثانياً: سرُّ الاعجاز في انتقاء الالفاظ الاجنبية في الذكر الحكيم:

من الاساليب التي تفرَّد بها آي القرآن الكريم أنه يسوق في بعض تعبيراته –ولاسيما القصص منها– لفظة أو اكثر مقتبسة من البيئة اللغوية التي يتحدث عنها ليربط بهذا الاستعمال بين اللغة والبيئة والمجتمع، وقد يعلو على ذلك ليتعدى الى العادات والتقاليد والقيم الاخلاقية، وليس بوسع الباحث سرد جميع الشواهد الدالة على هذا المراد، لأنَّ دراستنا هذه عُنيت بالألفاظ العربية المشتقة، لذا ارتأى الاكتفاء بأنموذجين منها على سبيل المثال لا الحصر:

١– قوله تعالى في قصة يوسف –عليه السلام– على لسان امرأة العزيز: ﴿**وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾[٩]، فلفظة (هيت) التي جرت على لسانها ليست بعربية وإنما سريانية، كانت مألوفة الاستعمال في البيئة الاجتماعية الفرعونية آنذاك[١٠]، ومعناها (أنا ملكٌ لك)[١١]، وقد أورد أبو عبيدة الاصل لهذه اللفظة فذهب الى أنها من البيئة المصرية القديمة التي كانت تتحدث اللغة القبطية[١٢]، ورأى الفرَّاء أنها لغة أهل حوران سقطت الى مكة فتكلموا بها، وهذا وفاق بين لغة قريش ولغة حوران[١٣].

٢– قوله تعالى في قصة موسى –عليه السلام–: ﴿**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى* أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**﴾[١٤]، فلفظة (اليم) ليست بعربية وإنما سريانية، والمعنى: أي اطرحيه في البحر[١٥]. وكذا الحال مع ألفاظ أجنبية أخرى ورد استعمالها في الترتيل العزيز من قبيل: (أوبي)[١٦] في قوله تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾[١٧]، ولفظة (منسأته)[١٨] في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ**﴾[١٩] ونحوها من الالفاظ[٢٠].

ثالثاً: خصائص الاعجاز القرآني في استعمال الألفاظ:

ثمَّة خصائص تفرَّد بها القرآن الكريم في استعمال الفاظه لعلَّ من أبرزها:

١. خصيصة المسحة الأسلوبية للفظ القرآني من جهة النظام الصوتي المؤتلف الذي سَحَرَ أسماع قريش قبل عقولهم.
٢. إرضاء اللفظة القرآنية العامة والخاصة، فيحس بجلالتها وجمال رونقها العامي البسيط والمثقف والعالم وهو من دقائق إعجازها.
٣. إرضاء اللفظة القرآنية العقل والعاطفة فهي في مقدمة الاستدلال العقلي الذي يأتي بالآيات التي تهز الوجدان هزاً عنيفاً.
٤. خصيصة جودة سبك اللفظة القرآنية وإحكام سردها لقوله تعالى: ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[٢١].
٥. براعتها في تصريف القول ومعناه إيراد المعنى الواحد بألفاظ مختلفة.
٦. جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان وهو سرٌ عجيب.
٧. خصيصة قصد القرآن باللفظ مع وفائه بالمعنى.

المبحث الثاني

الاعجاز في تنوع صيغة الفعل المشتق من جذر لغوي واحد

المراد من عنوان هذا المبحث أنَّ التعبير القرآني الكريم في كثير من استعمالاته يُنوع في الصيغ الفعلية ذي الاشتقاق الواحد من الجذر الثلاثي وغير الثلاثي، فيسوق صيغة في موضع ما، ويأتي بأخرى مغايرة لها من حيث البناء الحرفي في موضع آخر، على الرغم من أنَّ جذر كلا الفعلين واحد، وهذا هو سرُّ الاعجاز الذي عُنيت الدراسة ببيانه، لأنَّ من المعلوم لدى أهل العربية أن لا ترادف بين الصيغ الفعلية المشتقة، فلا بدَّ حينئذٍ من الإفصاح عن الفارق الدلالي في انتقاء كل واحدة منها.

ولمعرفة تلكمُ الفوارق الدلالية بين الصيغ الفعلية المشتقة والحكمة من ورودها على النحو الذي سيقت له، فقد جادت قدرة الباحث بالظفر بما هو آتٍ:

١– (يَبْدَأ – يُبْدِئ):

فعلان مضارعان كلاهما من جذر واحد هو (بَدَءَ) وقد ورد الفعل (يَبْدَأ) في الترتيل العزيز في ستة مواضع، واحدة منها –على سبيل المثال لا الحصر– في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٢٢]، ولم يرد الفعل (يُبْدِئ) على نحو هذا السياق الا في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾[٢٣].

إنَّ من ينعم نظره في أمَّات كتب التفسير يتضح له أنَّ بداية الخلق الذي تحدثت عنه الآية الاولى يشير الى الخلق الاول[٢٤]، وفي الثانية فهو يشير الى الخلق المستأنف[٢٥]، ودليل صحة هذا الاستدلال أنَّ الآية الاولى قد سُبقت بآية تتحدث عن بداية خلق السماوات والارض وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾[٢٦]، وكذا الحال بالنسبة الى المواطن الاخرى التي ورد فيها الفعل (يَبْدَأُ) فقد كان وروده مقترنا بذكر خلق السماوات والأرض.

أمَّا بالنسبة الى استعمال الفعل (يُبْدِئُ) فإنَّ من يتأمل سياق الآي المبارك يُدرك أنَّ المعاني التفسيرية التي سبقت هذا الفعل لم تُشرْ إلى قضية الخلق الأول وإنما تُفصح إفصاحاً كاملاً عن قضية الخلق الثاني المستأنف، بدليل أنها قد سُبقت بآيةٍ تتحدث عن عرض دعوتي نوح وإبراهيم –عليهما السلام– لقومهما بالأيمان، إذ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[٢٧]، ففي هذه الآيات الكريمات نجد الذكر الحكيم سبق (يُبدئ) بعرضٌ دعوة نوح وإبراهيم لقومها وهما من الخلق المستأنف الناشئ عن طريق التوالد[٢٨].

٢– (جَرَحَ – اجْتَرَحَ):

فعلان ماضيان مشتقان من مادة واحدة هي (الجَرْح) وكلاهما بمعنى (كَسَبَ) وكل واحد منهما ورد في موضع واحد من القرآن الكريم، ليؤدي دلالة تفسيرية تختلف عن الآخر بحسب السياق والمقام.

فقد ورد الفعل (جرح) في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى**﴾[٢٩]، والمعنى الذي تفصح عنه الآية أنه سبحانه يتوفى الناس جميعهم في الليل ويبعثهم في النهار، إلى أن تنتهي آجالهم، وهم بهذه الحال يعلمون كل ما كسبوه وعملوه في أثناء النهار[٣٠].

أمَّا الفعل الخماسي (اجترح) الوارد في قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[٣١]، فهو مزيد بالألف والتاء، والذي يبدو أنَّ دلالته الخماسية تختلف عن الثلاثية وليس كلاهما بمعنى واحد في الاستعمال القرآني.

إنَّ الفعل (اجترح) مزيد بحرفين، وعند أرباب العربية (اختلاف المباني تدلُّ على اختلاف المعاني)[٣٢] فيمكن حينئذٍ ايجاد الفارق بين الفعلين بعد إنعام النظر في كلا السياقين، فعند النظر في سياق الآية الاولى نجد أن الحديث فيها جاء على نحو العموم، والمُخاطَب فيها هم الناس جميعا، وهذا واضح من تعبير: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ...) فالناس كلهم ينامون في الليل ويستيقظون في النهار لأجل العمل والكسب، وقد يكون ما يكسبونه خيراً أو شراً، ونوع (ما) في الآية اسم موصول[٣٣] وهو ايضا دال على العموم، وعليه فالمؤمن وغير المؤمن داخل في تعبير (يعلم ما جرحتم).

أمَّا الآية الثانية فقد جاء السياق فيها على نحو الخصوص عن الذين اجترحوا السيئات وكسبوها وهم غير المؤمنين، فهؤلاء لا يساويهم الله تعالى مع المؤمنين الصالحين الذين كسبوا الحسنات.

وبهذا التأمل الدقيق يتبين أن الآي المبارك قد فرَّق بين الفعلين بحيث استعمل الثلاثي منه على نحو العموم ليشمل كل أنواع الجرح، بينما استعمل الخماسي خاصا باجتراح الحرام والشر، وقد تنبَّه الراغب الاصفهاني (ت:٥٠٢هـ) إلى هذا في كتابه المفردات فقال مبيناً معنى الاجتراح: (والاجتراحُ: اكتساب الاثمِ)[٣٤].

٣– (تَفَرَّقُوا – تَتَفَرَّقُوا):

فعلان متشابهان من جهة البناء، الفارق بينهما زيادة حرف واحد، وقد ورد استعمالهما في التعبير الكريم تارة بزيادة التاء وتارة بحذفها ، فقد قال تعالى في سورة آل عمران مخاطبا أمة نبينا الكريم : ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[٣٥] بتاء واحدة (تفرقوا) وقال في سورة الشورى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[٣٦] بتاءين (تتفرقوا) وللسائل أن يسأل عن الاختلاف في مبنى التعبير الكريم؟.

وللدكتور فاضل السامرائي رأيٌ قيّم في بيان سرَّ هذ الاختلاف البنائي إذ يرى أنَّ الخطاب في آل عمران موجه للأمة المحمدية وهي جزء من الأمم المذكورة في سورة الشورى وأقل عدداً منها، وهي من أصغر الأمم السابقة، فلما كانت الأمم المذكورة في الشورى كثيرة ومتعددة زاد في عدد حروفهم، ولما كان المخاطب في آل عمران أمة واحدة وهي اقلُّ عدداً من الأمم السابقة قلل من عدد حروفهم، فناسبت زيادة المبنى زيادة المعنى، وناسبت قلة المبنى قلة المعنى، فأعطى الحروف القليلة للأمة الواحدة الصغيرة، وأعطى الحروف الكثيرة للأمم الأكثر عدداً[٣٧].

٤- (يَخْتَصِمُون - يَخِصِّمُون):

ورد الفعل (يختصمون) في أربعة مواضع من القرآن الكريم، واحدة منها قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[٣٨]، وأمَّا (يخصِّمون) فلم ترد الا في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**﴾[٣٩].

يقول الطبري (ت:٣١٠هـ) في الآية الاولى: (قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وما كنتَ، يا محمد، عند قوم مريم، إذ يختصمون فيها أيُّهم أحقّ بها وأولى)[٤٠].

ويقول الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ) في الآية الأولى: (أَمَّا قَوْلُهُ "وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ" فَالْمَعْنَى وَمَا كُنْتَ هُنَاكَ إِذْ يَتَقَارَعُونَ عَلَى التَّكَفُّلِ بِهَا وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهَا فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الِاخْتِصَامِ مَا كَانَ قَبْلَ الْإِقْرَاعِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اخْتِصَامًا آخَرَ حَصَلَ بَعْدَ الْإِقْرَاعِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ شِدَّةُ رَغْبَتِهِمْ فِي التَّكَفُّلِ بِشَأْنِهَا، وَالْقِيَامِ بِإِصْلَاحِ مُهِمَّاتِهَا)[٤١].

ويقول في الثانية: (وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: يَخِصِّمُونَ فِي الْبَعْثِ وَيَقُولُونَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَصْلًا فَيَكُونُونَ غَافِلِينَ عَنْهُ بِخِلَافِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَكُونُ فَيَتَهَيَّأُ له وَيَنْتَظِرُ وُقُوعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَرْتَجِفُ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ**﴾ [الزُّمَر: ٦٨] مِمَّنِ اعْتَقَدَ وُقُوعَهَا فَاسْتَعَدَّ لَهَا)[٤٢].

ويقول أبو حيان الاندلسي (ت:٧٤٥) في الآية الثانية: (وَهَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَى تَأْخُذُهُمْ فَيَهْلِكُونَ، وَهُمْ يَتَخَاصَمُونَ، أَيْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ، فِي أَمَّا كِنِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ لِتَوْصِيَةٍ، وَلَا رُجُوعٍ إِلَى أَهْلٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلَانِ قَدْ نَشَرَا ثَوْبَهُمَا يَتَبَايَعَانِهِ، فَمَا يَطْوِيَانِهِ حَتَّى تَقُومَ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ، وَالرَّجُلُ يَرْفَعُ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ، فَمَا تَصِلُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ)[٤٣].

إنَّ معنى (يختصمون) أي: يتنازعون[٤٤]، وهي صيغة فعلية دالة على المشاركة على وزن (يفتعلون)[٤٥] كما نقول: يفتتنون، يقتتلون...الخ، وعليه فممن الممكن أن يكونوا قد اختصموا قبل الاقتراع، كما أفصح عن ذلك الفخر الرازي في كلامه أعلاه.

لكنَّ الذي نعنى ببيانه في هذا المقام هو استعمال (يخصّمون) مع وجود (يختصمون) في الآي الكريم، مع أنَّ الأصل في الأولى (يختصمون) وقد أُدغمت التاء في الصاد على خلاف المألوف في قواعد العربية، لأن الادغام يكون في الاحرف المتقاربة في المخرج كالدال مع التاء[٤٦]، وعليه فلا سبيل أمامنا للإفصاح عن هذا إلا إذا سلَّمنا بأنَّ سرًّا ما وراء هذا الادغام الخاص.

ويلُوح من ذلك –والله أعلم– أنَّ التضعيف في (يخصّمون) يراد منه القوة والتكثير والمبالغة في الاختصام، والمعنى كما يقول الدكتور فاضل السامرائي: (أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في معاملاتهم منشغلون في خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشد ما يكون غير منشغلين بشيء آخر عن الدنيا، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله، وفي الحديث: «شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء»[٤٧] فتصبح للساعة صيحة تقطع الاختصام، فلا يكون نبس ولا حركة ولا خصومة ولا كلام، بل صمت مطبق وسكون مطلق فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فعبر عن ذلك بقوله: (يخصّمون) ولا يدل الأصل (يختصمون) على هذه المبالغة والقوة)[٤٨].

٥- (تَوَفَّاهُمُ - تَتَوَفَّاهُمُ):

لقد قال في سورة النساء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[٤٩] إذ جاء الفعل في هذا الموضع بتاء واحدة (توفاهم) بينما قال في سورة النحل: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٥٠] فجاء هنا بتاءين (تتوفاهم)، فما سرُّ الاختلاف بين الفعلين؟.

والجواب عن هذا كما رآه أهل العلم: أنَّ المتوفين في سورة النساء هم جزء من الذين هم في النحل، فالذين في سورة النحل هم الذين ظلموا أنفسهم على وجه العموم من مستضعفين وغيرهم.

أمَّا الذين في سورة النساء فهم المستضعفون منهم، وهم قسم من الذين ظلموا أنفسهم فهم أقل عددا، فلما كان هؤلاء أقل عددا بالنسبة الى الآخرين قلل من عدد حروفهم في اشارة الى الاقتطاع من الحدث، فقال في القسم الأكبر منهم: (تتوفاهم) بالزيادة، وقال في القسم القليل: (توفاهم) بحذف احدى التاءين، فناسبت زيادة المبنى زيادة المعنى(٥١).

إذن يعدُّ التنوع الحاصل في اشتقاق صيغ الافعال أعلاه من جذرها واحدة من الظواهر الاسلوبية البارزة في التعبير القرآني وهذا التنوع يعدُّ واحداً من أظهر الادلة على الاعجاز القرآني للكلمة ذي الاشتقاق الواحد التي وصفها ابن عطية الاندلسي (ت:٥٤٢هـ) بقوله: (كتاب الله لو نُزعتْ منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يوجِد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام)(٥٢).

المبحث الثالث

الاعجاز في تنوع صيغة الاسم المشتق من جذر لغوي واحد

كما أنَّ تعدد الصيغة اللفظية للفعل ذي الاشتقاق الواحد يُشكّلُ مظهراً من مظاهر الاعجاز القرآني، فكذا الحال في تنوع الصيغ الاسمية، إذ لم يكتفِ القرآن الكريم بذكر صيغة واحدة للاسم وانما يورد أحياناً صيغتين وقد يتعدى إلى ثلاثة، كلُّ ذلك لحكمة فنية يدركها أرباب البصر بالتعبير وكلُّ من أُوتي نصيباً من تذوق الدلالة الاعجازية للترتيل العزيز.

وعليه فإنَّ الاختيار المعجز لهذه الصيغة الاسمية أو تلك راجعٌ إلى ذلك التناسق والانسجام، بحيث لا يصلح انتقاء غير هذا الاسم في هذا الموضع، فلا يمكن لغير هذه الكلمة أن تؤدي المعنى المقصود الذي يريد الآي إيصاله إلى المتلقي.

لذا فستكتفي الدراسة بتسليط الضوء على خمسة شواهد تطبيقية، والا فهي كثيرة ومتنوعة في الكتاب العزيز:

١- (عاصِف – عاصِفة):

اسمان مشتقان من فعل ثلاثي واحد هو (عَصَفَ) والامر الذي يستدعي الانتباه أنَّ (عاصف، عاصفة) كلاهما قد ورد في الكتاب العزيز مقترناً مع مفردة (الريح) فقد وُصفت الريح في موضع بأنَّها عاصف وفي آخر بأنَّها عاصفة؟ فقد سيقت الاولى في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾(٥٣).

أمَّا لفظة (عاصفة) فقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾(٥٤).

قال الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ) ناقلاً عن الفرَّاء (ت:٢٠٧هـ) والزجاج (ت:٣١١هـ): (قَالَ الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ: يُقَالُ رِيحٌ عَاصِفٌ وَعَاصِفَةٌ، وَقَدْ عَصَفَتْ عُصُوفًا وَأَعْصَفَتْ، فَهِيَ مُعْصِفٌ وَمُعْصِفَةٌ. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَالْأَلِفُ لُغَةُ بَنِي أَسَدٍ، وَمَعْنَى عَصَفَتِ الرِّيحُ اشْتَدَّتْ، وَأَصْلُ الْعَصْفِ السُّرْعَةُ، يُقَالُ: نَاقَةٌ عَاصِفٌ وَعَصُوفٌ سَرِيعَةٌ، وَإِنَّمَا قِيلَ رِيحٌ عاصِفٌ لِأَنَّهُ يُرَادُ ذَاتُ عُصُوفٍ كَمَا قِيلَ: لَابِنٌ وَتَامِرٌ أَوْ لِأَجْلِ أَنَّ لَفْظَ الرِّيحِ مُذَكَّرٌ)(٥٥).

ويقول في معنى (عاصفة): (قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ** أَيْ جَعَلْنَاهَا طَائِعَةً مُنْقَادَةً لَهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ إِنْ أَرَادَهَا عَاصِفَةً كَانَتْ عَاصِفَةً وَإِنْ أَرَادَهَا لَيِّنَةً كَانَتْ لَيِّنَةً واللَّه تَعَالَى مُسَخِّرُهَا فِي الْحَالَتَيْنِ)(٥٦).

الذي يظهر من كلام الفخر الرازي –والله أعلم– أنَّ وصف الريح بـ(عاصف) جاء لأنَّ المعنى ذو عصوف لأنَّها كما وصفها مثل: لابن وتامر... فإنك إن قلت: لابن وتامر، فأنت كأنك تريد أن تقول: ذو لبن وذو تمر، ولا يتوفر إتيان هذا المعنى بوصفه راجعا إلى الوزن من لفظة (عاصف) إذ لا يصح أن تقول: (ريح عصَّاف) على معنى النسب، وأما بالنسبة إلى وصف الريح بصيغة التذكير (عاصف) فلأنَّ لفظها مذكر، وإن كان معناها مؤنثا، وعليه فيصح لك أن تقول (ريح عاصف) من جهة الحمل على اللفظ، وتقول (ريح عاصفة) من جهة الحمل على المعنى(٥٧).

ويبقى السؤال عالقاً إلى الآن، ما وجه الاعجاز في تنوع صيغة هذه الكلمة فلِمَ جاءت في سياق التذكير مرَّة وفي التأنيث أخرى؟ .

ففي سياق التذكير وردت (الريح) في هذا المقام متصفة بصفتين متباينتين الأولى تتصف بأنها طيبة، والثانية تتصف بالعصف، وعليه فإنَّ الوصف الأول خاصٌ بالمعنى، بينما الثاني كان خاصاً باللفظ، فلمَّا كان المعنى مؤنثاً أوردها التعبير الكريم بصيغة التأنيث، ولما كانت في الثانية صفة للفظ المذكر جاء بها على نحو التذكير[٥٨].

٢- (خُسر – خسار – خسران):

أسماءٌ ثلاثةٌ من جذر ثلاثي واحد هو (خَسِرَ)، وكلُّ أبنيتها مختلفة الصيغ، فكان لكلّ واحد منها دلالة خاصة واستعمال خاص، فقد استعمل التعبير الكريم (الخسر) لعموم الخسارة، سواء كانت قليلة أم كثيرة، إذ هي لمطلق الخسارة ولذا بناها من ثلاثة أحرف، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[٥٩] فقد أفصحت السورة عن أنَّ الإنسان واقع في الخسارة على نحو الاطلاق إلا الذين استثنتهم ممَّن اتصفوا بالصفات الاربع المذكورة.

وأما الخسار: فقد سيق للدلالة على الزيادة في الخسارة، فإن كان الانسان قد خسر وازداد خسارة على خسارته فهذه الزيادة سماها الآي بالخسار، كما قال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا**﴾[٦٠].

أما الخسران : فاستعمله لأكبر الخسارة وأعظمها ولم يستعمله للخسر أو الخسار، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[٦١] وقوله تعالى: ﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[٦٢].

وعليه يتضح من الأمثلة المتقدمة أنَّ الكتاب العزيز يأتي بـ(الخسر) لمطلق الخسارة، و(الخسار) لما زاد عنها في الخسارة، والخسران لأعظم الخسارة وأفدحها، فقد زاد الخسار على الخسر بالألف للزيادة في الخسر، وزاد الخسران بالألف والنون فكان لأعظم الخسارة وأبلغها ولذا بناه من (٥ أحرف)[٦٣].

٣- (الآثِم – الأثيم):

اسمان مشتقان من مادة واحدة هي (أَثِمَ) حملَ كل واحد منهما دلالة تفسيرية مغايرة عن الآخر، فالثاني صيغة مبالغة على وزن (فعيل) خاصٌ بالمبالغ في الإثم ، والاول اسم فاعل خاصٌ بمن هو أقل منه في الإثم.

وعليه فقد كان الاستعمال القرآني للآثم لمن ارتكب إثماً معيناً مقصوراً على فعلٍ معين ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾[٦٤].

أما الأثيم: فقد سِيق استُعمل للمبالغ في الإثم كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ* أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[٦٥]، فقد تحدثت هذه الآيات عن صفات هذا النوع من البشر بأنَّه مهين وأنه يهمز الناس ويعيبهم ويسعى بالنميمة بينهم وكذلك يمنع الخير عنهم ويعتدي عليهم ويستهزئ بآيات الله فإنه إذا تليت عليه الآيات قال أساطير الأولين، ولا شك أن كل صفة من هذه الصفات تستدعي بصاحبها أن يكون أثيماً فكيف إذا جُمعت كلها[٦٦] .

٤- (ظَلُومٌ – ظَلَّام):

كلاهما صيغتا مبالغة إلا أنَّ الاولى مختلفة عن الثانية من جهة البناء، مع أنَّ جذرهما الثلاثي واحد (ظَلَمَ) فما وجه الاعجاز فيهما؟ .

إنَّ من ينعم نظره في مواضع ورود هاتين اللفظتين يتلمَّس سرَّ ذلك الاختلاف فيجد أنَّ (ظلوم) قد اختُصت بالإنسان على نحو العموم، إذ قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾[٦٧] .

وأمَّا (ظلام) فقد اختُص استعمالها بنفي الظلم عن الله سبحانه وفي كل مواضع ورودها نجد أنها سيقت للدلالة على نفي الظلم للعبيد، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾(٦٨) فقد جاء التعبير هنا بصيغة المبالغة (ظلام) الدالة على التكثير لأنَّه علقه بالعبيد وهم كثر، فناسبت الكثرة اللفظية الكثرة المعنوية(٦٩) .

٥- **(الموت – الممات):**

لفظتان مشتقتان من فعل واحد هو (مَاتَ) إلا أنَّه ثمَّة فارقاً دلالياً في استعمال كلّ واحدة منهما في الكتاب الكريم يمكن أن نتلمَّسه من خلال ما يأتي:

أولاً: الموت:

- قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٧٠).
- قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾(٧١).
- قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾(٧٢).
- قال تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾(٧٣).

ثانياً: الممات:

- قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾(٧٤).
- قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٧٥).
- قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾(٧٦).

واضحٌ الفارق لمن ينعم نظره في الآيات الكريمات أعلاه، فيجد أنَّ التعبير الكريم يستعمل الموت لعامة المخلوقات البشر وغيرهم بدليل قوله " **فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا**" فقد استعمل الموت هنا مع الارض، وكذا الحال مع قوله " **كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**" فقد سيقت لفظة الموت هنا وصفاً للقرية.

بينما نجد الآيات الثلاث التي تتحدث عن الممات لم يأتي استعمالها على نحو العموم، وإنما خاصة بالبشر وحدهم، وعليه فإنَّ وجه الاعجاز في هاتين الكلمتين يكمن في استعمال الاولى لعامة المخلوقات من البشر وغيرهم، والثانية خاصة بالبشر وحدهم بقرينة الآيات التي ذكرناها اعلاه(٧٧).

٥- **(كبير – كُبَّار):**

كلا الاسمين من مادة (كَبُرَ) وقد وردت مفردة (كبير) في الكتاب الحكيم في ست وثلاثين موضعا، واحدة منها في قوله تعالى عن موسى –عليه السلام– وابنتي شعيب –عليه السلام–: ﴿**وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾(٧٨)، وقوله تعالى: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾(٧٩).

أمَّا (كُبَّار) فلم تأتي في القرآن الا في موضع واحد، في قوله تعالى على لسان نوح –عليه السلام– ﴿**رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا* وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**﴾(٨٠).

يقول بن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) في معنى (كُبَّاراً): (في قوله: "**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**" كثيرا، كهيئة قوله: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا**﴾(٨١) والكُبَّار: هو الكبير، كما قال ابن زيد، تقول العرب: أمرٌ عجيب وعجاب بالتخفيف، وعُجَّاب بالتشديد، ورجل حُسَان وحَسَّان، وجُمال وَجمَّالٌ بالتخفيف والتشديد، وكذلك كبير وكُبَّار بالتخفيف والتشديد)(٨٢).

ويقول جار الله الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) بهذا الشأن: (مَكْراً كُبَّاراً قرئ بالتخفيف والتثقيل. والكبار: أكبر من الكبير. والكبار: أكبر من الكبار، ونحوه: طوال وطوّال)[٨٣].

ويقول الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ) في تفسيره الكبير: (الْمَكْرُ الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: لا تَذَرُنَّ وَدًّا فَهُمْ مَنَعُوا الْقَوْمَ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَأَمَرُوهُمْ بِالشِّرْكِ، وَلَمَّا كَانَ التَّوْحِيدُ أَعْظَمَ الْمَرَاتِبِ، لَا جَرَمَ كَانَ الْمَنْعُ مِنْهُ أَعْظَمَ الْكَبَائِرِ فَلِهَذَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ كُبَّارٌ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا مَنْ فَضَّلَ عِلْمَ الْكَلَامِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ، فَقَالَ: الْأَمْرُ بِالشِّرْكِ كُبَّارٌ فِي الْقُبْحِ وَالْخِزْيِ، فَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِرْشَادِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُبَّارًا فِي الْخَيْرِ وَالدِّينِ)[٨٤].

واضحٌ لدى الجميع بأنَّ مفردة كبير هي الصيغة المألوفة والأكثر استعمالاً، وهي صفة مشبهة على وزن (فعيل) ولهذا فقد وردت في ٣٦ موضعا، فهي صفة مألوفة الاستعمال والتداول، بحيث كان الاتيان بها هو الأصل فلا يستدعي انتقائها تفسيراً خاصاً بها، بخلاف مفردة (كُبَّاراً) التي لم تكن مألوفة الاستعمال، فهي كما رآها المفسرون أنها صفة مشبهة تدل على أعلى مراتب المبالغة والتوكيد ولهذا لم ترد في القرآن الا في موضع واحد، بخلاف (كبيراً) التي تنطوي على مبالغة محدودة[٨٥].

من خلال ما تقدم يُساق الى المُخيِّلة أن المعنى الذي استدعى ورود (كُبَّاراً) في الآي كان يستدعي القوة في المبالغة والتوكيد، فقد يكون مكرهم (الكُبَّار) هو أنهم قد طلبوا من الذين اتبعوهم أن يكفروا بالله سبحانه وتعالى وأن يتخذوا له اندادا منهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٨٦]، أو قد يكون سبب ذلك سخريتهم كما قال تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ** ﴾[٨٧].

وقد يكون مكرهم ما تضمنته الآيات المجاورة لـ(كُبَّاراً) من دلالات سلبية تمثلت بعصيانهم لنوح –عليه السلام– وعدم الرضوخ لدعوته واتباعهم اهوائهم ونحوها، وعليه فهذه الامور بمجموعها او بمفردها استدعت مجيء كلمة (كُبَّاراً) في سياقها الذي جرت عليه .

الخاتمة

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين

أمَّا بعدُ:

فهذه خلاصة بأهم النتائج المستنبطة من هذا البحث تمثلت بما يأتي:

١– إنَّ المراد من مصطلح الاعجاز اللغوي في دراستنا هذه هو البحث في بعض الأساليب التي تفرد بها التعبير القرآني الكريم، واحدة منها ما تمَّ تسليط الضوء عليه في هذا البحث.

٢– لقد ساق التعبير القرآني الكريم في بعض مواضعه ألفاظا لم تكن مألوفة في القاموس العربي والحكمة من هذا الاستعمال ليربط بين لغة المجتمع الذي يتحدث عنه وبيئته، وقد يعلو على ذلك ليتعدى الى العادات والتقاليد والقيم الاخلاقية.

٣– ثمَّة خصائص أسلوبية تفرَّد بها الاعجاز القرآني في استعمال الفاظه بحيث جعلته يتفوق على كل البناءات الأدبية الأخرى، وتشكّل خصيصة المصدر الإلهي السمة الأبرز في ذلك.

٤– إنَّ المراد بـ(الاعجاز في تنوع صيغة الفعل المشتق) هو تنوع الصيغة البنائية للفعل المتصرّف في الكتاب العزيز، والكشف عن السرّ من وراء ذلك التنوع.

٥– يُشكّل التنوع الاشتقاقي للاسم في الكتاب الكريم مظهراً من مظاهر إعجازه، إذ لم يكتفِ القرآن الكريم بذكر صيغة واحدة للاسم، فقد يورد أحياناً صيغتين وقد يتعدى إلى ثلاثة، وكل ذلك راجع إلى حكمة فنية دقيقة يرشد إليها السياق والنسق البنائي للآي الحكيم.

هذا ما وفقني إليه ربي وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

هوامش البحث

١- النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: ٤٦٠/٢.

٢- ينظر: بن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٢٣٢/٤.

٣- ينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: ٢٠٠/١٥.

٤- ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٢٣٢/٤-٢٣٣.

٥- ينظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٨٨٤/٣.

٦- الجرجاني، التعريفات: ٣١.

٧- الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ٥٥.

٨- سورة الاسراء: الآية ٨٨.

٩- سورة يوسف: الآية ٢٣.

١٠- ينظر: الشوكاني، فتح القدير: ١٥/٣.

١١- ينظر: المصدر نفسه: ١٥/٣-١٦.

١٢- ينظر: القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: ٣١١/٦.

١٣- ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٤٣٨/١٨.

١٤- سورة طه: الآية ٣٨-٣٩.

١٥- ينظر: محمود السيد حسن، الاعجاز اللغوي في القصة القرآنية: ٩٦+ ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٨/٤.

١٦- ينظر: الاعجاز اللغوي في القصة القرآنية: ٩٦.

١٧- سورة سبأ: الآية ١٠.

١٨- ينظر: سليمان بن عمر الجمل، الفتوحات الإلهية: ٤٦٦/٣.

١٩- سورة سبأ: الآية ١٤.

٢٠- ينظر: فوزي الهابط، معجم معاني ألفاظ القرآن الكريم: ١١-٢٢.

٢١- سورة الزمر: الآية ٢٨.

٢٢- سورة الروم: الآية ١١.

٢٣- سورة العنكبوت: الآية ١٩.

٢٤- ينظر: محمد السبزواري، الجديد في التفسير: ٣٥٠/٥.

٢٥- ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٤٤٨/٣.

٢٦- سورة الأعراف: الآية ٥٤.

٢٧- سورة العنكبوت: الآية ١٤-١٩.

٢٨- ينظر: السمرقندي، بحر العلوم: ٦٢٨/٢.

٢٩- سورة الانعام: الآية ٦٠.

٣٠- ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: ٣٨/٢.

٣١- سورة الجاثية: الآية ٢١.

٣٢- ينظر: العسكري، الفروق اللغوية: ٥١٢.

٣٣- ينظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: ١٣٥/٣.

٣٤- ينظر: الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ١٩١.

٣٥- سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٣٦- سورة الشورى: الآية ١٣.

٣٧- ينظر: السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١٤.

٣٨- سورة آل عمران، الآية ٤٤.

٣٩- سورة يس: الآية ٤٩.

٤٠- الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤١٠/٦.

٤١- الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٢٢٠/٨.

٤٢- المصدر نفسه: ٢٩٠/٢٦.

٤٣- الاندلسي، البحر المحيط في التفسير: ٧٣/٩.

٤٤- ينظر: محمد جواد مغنية، الكاشف: ٥٧/٢.

٤٥- ينظر: الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص: ٣٣/١.

٤٦- ينظر: القادوسي، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجا: ٩٨.

٤٧- الحنبلي، آل رسول الله وأولياؤه: ٢٣.

٤٨- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٥٥.

٤٩- سورة النساء: الآية ٩٧.

٥٠- سورة النحل: الآية ٢٨.

٥١- ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١٣.

٥٢- ابن عطية الاندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٥٢/١.

٥٣- سورة يونس: الآية ٢٢.

٥٤- سورة الأنبياء: ٨١.

٥٥- التفسير الكبير: ٢٣٥/١٧.

٥٦- المصدر نفسه: ١٦٩/٢٢.

٥٧- ينظر: ابن الاثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ١٠٦.

٥٨- ينظر: العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٨٠/٦.

٥٩- سورة العصر.

٦٠- سورة نوح: الآية ٢١.

٦١- سورة الزمر: الآية ١٥.

٦٢- سورة الحج: الآية ١١.

٦٣- ينظر: السامرائي، من أسرار البيان القرآني: ١٢.

٦٤- سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

٦٥- سورة القلم: الآية ١٠-١٥.

٦٦- ينظر: الشيرازي، الأمثل في تفسير كلام الله المنزل: ٥٢٧/١٨.

٦٧- سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

٦٨- سورة الحج: الآية ١٠.

٦٩- ينظر: من أسرار البيان القرآني: ٣٤.

٧٠- سورة البقرة: الآية ٩٤.

٧١- سورة البقرة: الآية ١٨٠.

٧٢- سورة العنكبوت: الآية ٦٣.

٧٣- سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

٧٤- سورة الاسراء: الآية ٧٥.

٧٥- سورة الانعام: الآية ١٦٢.

٧٦- سورة الجاثية: الآية ٢١.

٧٧- ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١١.

٧٨- سورة القصص: الآية ٢٣.

٧٩- سورة النساء: الآية ٢.

٨٠- سورة نوح: الآية ٢١.

٨١- سورة النبأ: الآية ٣٥.

٨٢- جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٦٣٩/٢٣.

٨٣- الزمخشري، الكشاف: ٦١٩/٤.

٨٤- التفسير الكبير: ٦٥٦/٣٠.

٨٥- ينظر: القاسمي، محاسن التأويل: ٣٢٤/٩.

٨٦- سورة سبأ: الآية ٣٣.

٨٧- سورة هود: الآية ٣٨.

المصادر

١- ابن الاثير، أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت: ٦٣٧هـ) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، بغداد–العراق، د.ط، ١٣٧٥هـ.

٢- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت : ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تح : عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ .

٣- الأندلسي، أبو محمد بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية (ت : ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح : عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ .

٤- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت : ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن ، تح : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم الشامية ، دمشق – سوريا ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

٥- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت : ٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، تح : صدقي محمد جميل ، دار الفكر، بيروت – لبنان ، د. ط ، د. ت .

٦- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت : ٨١٦هـ)، التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .

٧- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت : ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ .

٨- الحريري، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد (ت : ١٤١٨هـ)، درة الغواص في أوهام الخواص، تح : عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٨هـ .

٩- الحنبلي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله العاصمي (ت:١٤٢١هـ)آل رسول الله وأولياؤه، دار عمار، عمان- الأردن، د.ط، د.ت.

١٠- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت : ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح : مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت – لبنان، ط١، د . ت .

١١- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت : ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٣ ، ١٤٠٧هـ .

١٢- السامرائي، فاضل صالح " الدكتور"، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار، عمان – الأردن، ط٥، ١٤٢٩هـ .

١٣- السامرائي، فاضل صالح " الدكتور"، من أسرار البيان القرآني، دار عمار، عمان – الأردن، ط٢، ١٤٣٠هـ.

١٤- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد (ت : ٣٧٥هـ)، تفسير بحر العلوم، تح : علي محمد مموض وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٣هـ .

١٥- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر (ت : ١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ، ط١ ، ١٤١٨هـ .

١٦- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت : ١٢٥٠هـ)، تفسير فتح القدير، دار الكلم الطيب، دمشق – سوريا ، ط١ ، ١٤١٤هـ .

١٧- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم- إيران، ط١، ١٤٢١هـ .

١٨- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت : ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ .

١٩- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت : ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩هـ .

٢٠- العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (ت : ٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، د. ط ، د. ت .

٢١- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (ت : ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ.

٢٢- القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق الحسيني البخاري (ت:١٣٠٧هـ) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٣- القادوسي، عبد الرازق بن حمودة، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجا، دار حلوان، الرياض – السعودية، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٢٤- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت:١٣٣٢هـ) محاسن التأويل، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١٨،١٤١٨هـ.

٢٥- النخجواني، نعمة الله بن محمود (ت:٩٢٠هـ) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، دار ركابي، الغورية–مصر، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٦- بن فارس، أبو الحسين بن زكريا القزويني (ت : ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح : عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، د . ط ، د . ت .

٢٧- سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٨- فوزي بن يوسف الهابط، معجم معاني ألفاظ القرآن الكريم، مكتبة المدينة المنورة، جدة–السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٩- محمد السبزواري، الجديد في التفسير، دار التعارف للمطبوعات، قم- إيران، ط١، ١٤٣٠هـ.

٣٠- مغنية ، محمد جواد (ت : ١٤٠٠هـ)، تفسير الكاشف ، دار الأنوار، بيروت – لبنان ، ط٤ ، د. ت .

٣١- محمود السيد حسن، الاعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة–مصر، ط١، ١٤٠٣هـ.

٣٢- محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، إعراب القرآن وبيانه، دار الارشاد، حمص–سوريا، ط٤، ١٤١٥هـ.